كلمةُ التَّحرير

في كتابه "**الضحكة والنسيان**" ذكر ميلان كندورة حادثة معبرة عن نوع من أنواع التزوير التاريخي الملفت للنظر، لأنه كان من النوع الذي يهدف إلى نفي ما وقع بالفعل وليس فقط تأويله تأويلا غريبا، مفادها أنه في شهر فبراير من عام ١٩٤٨، كان الزعيم الشيوعي كلمنت قوتوالد يخطب في الجماهير التي احتشدت أمام قصر الباروك في مدينة براغ التشيكية وقد أخذه الحماس ولم يكترث بنـــزول المطر ولا بتساقط الثلوج، كان مكشوف الرأس، نسي أن يأخذ معه قبعته، وبنباهة المستحمر سارع عضده الأيمن السيد كلمنتيس وكان يقف إلى جانبه في شرفة القصر المطلة على الساحة العامة، سارع إلى نزع قبعته ووضعها على رأس الزعيم، فتعالت أصوات الجماهير إعجابا وضجت الساحة بالتصفيق لهذا المشهد المثير والتقطت الصحافة تلك الصورة التاريخية لتثبت بعد ذلك على جدران المدينة وقاعات الدرس، وكل المؤسسات العامة فضلا عن تضمين المقررات الدراسية لها. فعلمها الشاهد والغائب، المتعلم والجاهل، الصغير والكبير.

بعد أربع سنوات أُتهم كلمنتيس بالخيانة العظمى وأعدم شنقاً وكان على مهندسي إعادة كتابة التاريخ وفق الرواية الرسمية أن يعيدوا ترتيب الأوضاع كما تقتضيها الظروف الطارئة فعمدوا إلى محو صورة كلمنتيس ولكنهم وقفوا عاجزين أمام قبعته التي استعصمت بمكان آمن وآستعصت عن التزوير. ظلت هذه القبعة شاهدة على التلاعب بالأحداث والاستخفاف بعقول الناس فالجميع يعرف أن تلك القبعة القابعة فوق رأس كوتوالد هي قبعة كلمنتيس.

لا شك أن القارىء النابه سيستحضر صورا أخرى مشابهة، فالقبعة يمكن أن تكون حذاءً أو جبة أو قطعة قميص دفعت المودة صاحبها إلى ملاصقة يستحيل معها اللجوء إلى إجراء عملية الفصل، مثلها مثل تلك العمليات الجراحية المعقدة التي تجرى على التوائم السيامية، فاكتفى جراحو التاريخ بقدّ القميص مِنْ قُبُلٍ. هذه الحادثة التي ذكرها ميلان كندورة جعلتنا نتوقف عند الصورة بكل أشكالها وليس فقط الصورة الفوتوغرافية، فالصورة يمكن أن تشمل كل عملية تنميط تهدف إلى إعادة ترتيب الأحداث التاريخية وفق تصور معين، وعملية من هذا النوع تستدعي بالضرورة إعدام كل ما لا يتفق مع ذلك التصور فيتشكل الوعي التاريخي في ضوئها. لا شك أن خطرها يتجاوز العبث بالأحداث التاريخية في صورتها التي عاشها معاصروها لتصبح عوائق لا شعورية تعيق التفكير وتحد النّظر وتعقد اللسان. الغريب أن هذه الصورة النمطية عندما تنشأ تكون مجرد وجهة نظر أو قراءة معّينة للأحداث التاريخية فإذا اتفق أن تبنّاها أصحاب الشوكة وأصحاب الكاريزما

وتوافد أصحاب الأقلام يقعّدون لها تحولت إلى أيديولوجيا مهيمنة تتحصن بأبراج منيعة خاصة تلك التي تتخذ أبعاداً عقائدية، دينية أو أيديولوجية.

وكل من حاول أن يتجرأ على تحريك المياه الساكنة اتهم في صحة عقيدته و في صدق ولائه، لاشك أن تحريك المياه الساكنة قد يكون أحياناً منطلقاً عند البعض لهدم العقيدة نفسها، وليس مجرد إعادة النظر في تعيّنها التاريخي وهنا منشأ الالتباس وصعوبة التفريق بين كل هذه الأصناف خاصة عند الذين لا يستطيعون الصبر على قراءة الألوان الرمادية. أمّا الخطر الأكبر لهذه الصورة النمطية فإنه يتمثل في تحولها إلى حاجزٍ يمنع فهم ما وقع حقيقة طالما أننا نتعامل مع تاريخ وهمي، تاريخ رُتِّبَت أحداثه بطريقة جعلته يكون معبرا عن فهم معين، للأحداث ولذلك ترانا نكتوي المرات العديدة بالأمر نفسه ونواجه ذات المشكلات ولكننا نُصِرّ على عدم فتح ملفات الماضي المجيد بدعوى أن الحفر في الجرح لا يزيدنا إلا ألما ولكن هل هناك علاجاً حقيقياً دون إيلام؟! إن الصيغة التوافقية التي نحفظها عن ظهر قلب ونورثها أطفالنا عن الاختبارات السياسية الأولى للأمة لن تحلّ مشكلة حاضرنا لأننا نتجنب باستمرار الوقوف عند أسبابها الحقيقية. سيكون إذاً من الوهم أن نتصور ان التخلص من الاستبداد السياسي الذي تشترك فيه مؤسسات الحكم مع أحزاب المعارضة أمرا ممكناً طالما أننا لم ننجح في تجريده من الصيغ الشرعية التي عادة ما يلجأ إليها من أجل إعطاء الاجتهاد السياسي بعداً شرعياً.

لكن خطر الصورة النمطية لم يعد مقصوراً في قراءتنا للتاريخ ولكنها أصبحت اليوم متحكمة في قراءتنا للواقع المعاش. لقد تطورت تقنيات

الصورة إلى درجة أصبح معها المشاهد غير قادر على التفريق بين الحقيقي والمركب وحتى وان كانت الصورة حقيقية، فإنها مترعة من إطارها العام فهي لا تعكس الحقيقة ولكنها تعكس جزءا فقط منها والحقيقة إذا تجزأت تحولت إلى شيء غير الحقيقة، والصورة الإشهارية لسيارة فاخرة بجانبها فتاة فاتنة ليست حقيقة إلا من حيث حضورها الآني أمام المشاهد، فهي في الحقيقة صورة وهمية يُراد منها توجيه اهتماماته وتأطير طموحاته فخطرها الحقيقي يكمن فيما تتركه من رمزية للمتعة المادية العابرة وصقل لطموحات المشاهدين في قالب التصور المادي للحياة. فضلاً عن ذلك الوعي المتشتت الذي لا يكاد صاحبه يركز تفكيره في فهم الصورة المعروضة على الشاشة وإبراز مدلولاتها حتى تهجم عليه صورة أخرى تأخذه إلى عالم آخر، فهي لا تنقله من قيمة إلى قيمة، ولكن من حالة مادية انطباعية إلى حالة مادية انطباعية أخرى، ففي ذات اللحظة ينتقل المشاهد من صورة مشبعة بالعنف والدموية إلى صورة أخرى مشبعة بالإباحية.

هكذا ينعدم عنده وبشكل تدريجي الشعور القيمي وتتساوى عنده الأشياء ويتبلد ذهنه وتلك هي نتيجة الاتصال المشوّه الذي ألغى القيمة من أدبياته وركز على حاسة البصر، أو بالأحرى على الفعل البصري العابر الفاقد لنظامه الرمزي الذي تفكك بفعل المشاهد المتكررة والسريعة للعديد من الصور.

ففي هذا العالم الذي تطورت فيه وسائل الاتصال بكل تقنياته المستخدمة ينعدم التواصل الشعوري فضلا عن التواصل الاجتماعي، وتلك هي المفارقة التي

يعيشها إنسان العولمة فبقدر ما تنوعت وسائله في الاتصال بالآخر بقدر ما يحس بأن عالمه الشخصي يزداد ضيقاً يوماً بعد يوم، تحاصره فرديته وتخنقه وحشته وفي الوقت نفسه يشعر بأنه يموج وسط فضاء لا حدود له.

تلك هي قيمة اللامعنى التي تصاحب هذا الكم الهائل من الصور المتلاحقة وفي غياب المعنى يمكن للإنسان أن يتخذ القرار الذي يستجيب أكثر إلى غرائزه بسبب هذا التأثير المباشر للصور ذات الدلالات القوية بصرف النظر عن كونها حقيقية أم مزيفة، فكم من القرارات الخطيرة في حياة الدول والشعوب اتخذت تحت تأثير الصورة المرئية المزيفة ومن فاته الاعتماد على الصورة المزيفة يعمد إلى الصورة الحقيقية ويعبث بها حتى تصبح ملائمة لما جد من ظروف وما استجد من قضايا ومتطلبات.

ومن هنا وجب التنبيه إلى عدم التعامل مع الصور على أنها قرائن للحقيقة كما كانت فعلاً حين نشأتها بوصفها أداة إعلامية أسهمت بشكل كبير في التعريف بحقائق أُريد لها أن تُطمس.

ليس معنى ذلك أن الصورة فقدت دورها الإعلامي بل بالعكس فلأن الصورة صارت تؤدي دوراً مهماً في الإعلام أضحت عرضة للتلاعب والتركيب، فكم من صورة كانت سبباً في تحولات كبرى بسبب الأحداث التي استطاعت أن تصل إليها عدسة المصورين، ما زالت الجملة التي وضعها الصحفي والكاتب عبدالله شلايفر تحت الصورة التي قبّل فيها بيجن زوجة الرئيس المصري السابق على سبيل المثال حاضرة في الأذهان حين كتب "قبلة الموت" ولقد كانت بالفعل قبلة للموت.

بسبب هذا الدور المتعاظم للصورة تفرض الإدارة الأمريكية وحلفاؤها حصاراً في العراق وأفغانستان وفي غيرهما من مناطق العالم على الإعلام ولا تسمح بتغطية محايدة للأحداث وما استطاع أن يفلت أو ما تم إفلاته عن قصد كان سببا في التعريف بالوجه الآخر لما سمي بالحرب ضد الإرهاب. لقد تطورت تقنيات التلاعب بالصورة وتوظيفها في تثبيت وجهة نظر معينة. من هنا جاء التأكيد على ضرورة عدم أخذ الصورة على علاتها ويجب في الآن نفسه تطوير تقنيات قراءة الصورة وفهمها حتى يصبح عند المشاهد القدرة الكافية على تمييز الطيب من الخبيث.

تنويه:

بصدور العدد السادس عشر سيتولى إدارة المجلة فريق عمل جديد، نسأل الله لهم التوفيق في الأعمال والسداد في الرأي، ونأمل أن يجدوا كل العون والعناية. من جانبنا نود أن نعتذر للقراء الكرام ولكتابنا المحترمين عن أي تقصير صدر منا في حقهم. ونود أن نشكر كل الإخوة الذين انتسبوا إلى هيئة تحرير المجلة، وكل الإخوة أمناء التحرير والمصححين اللغويين على الجهود التي بذلوها للحفاظ على استمرارية المجلة والبلوغ بها إلى مستوى المجلات العالمية المحترمة، والسلام.